

## دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

## تاريخ كلمة أدب

لا نجد « كلمة أدب » فيما بين أيدينا من الكلام للأئمة عن الجاهليين ؛ ولكن ورودها فيما أُرثر عن الرسول (صلوات الله عليه) وعن الصحابة يرجح أنها كانت مستعملة قبل الإسلام في المعاني التي دلت عليها في عهد الرسالة أو في معان قريبة منها ولدينا روايات من صدر الإسلام منها :

١ - أن علياً رضي الله عنه قال للرسول : يا رسول الله : نحن بتوابع واحد ، ويزالك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ورأيت في بيتي سعد »<sup>(١)</sup> والتأديب هنا معناه التعليم

٢ - ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتملوا من مأدبته » ، والمأدبة هنا موضع الأدب أي الكتاب الجامع ما يؤدب به الله الناس من أوامر ونواه ومواعظ وحكم

٣ - وروى عن عبد الله بن عباس أنه قال في تفسير الآية : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » : ففهوم وأدبوم . وقال مقاتل أحد التابعين في تفسير الآية نفسها : أن يؤدب المرء نفسه وأهله فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر<sup>(٢)</sup> والأدب في هاتين الروايتين يراد به التهذيب الذي يقرب من الخير ويبعد عن الشر وفي العصر الأموي نجد الكلمة مستعملة في المعاني المتقدمة أو ما يقرب منها :

جاء في شعر مُرَّاحم المُقْبَلِي وصفُ الجمل المذللُ بالأدب قال :  
فهن يصرفن النوى بين عالجٍ ونجران تصريف الأدب المذلل  
وجاء في خطبة زياد البراء :

« فادعوا الله بالصالح لأتمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم .  
أما والله لأؤدبكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن »

(١) بنو سعد : قبيلة من هوازن تنسب إليها حليلة المدينة مرضعة الرسول  
(٢) الرسالة القصيرة : باب الأدب ، تفسير الفخر الرازي

وقال بعض الفزاريين من شعراء الحنابلة :  
أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسواة اللقب  
كذلك أدبت حتى صار من خاقي أنى وجدت ملاك الشيعة الأدبا  
وأتخذ الخلفاء والكبراء في العصر الأموي فنا بعده معلمين  
يؤدبون أولادهم فكانوا يسمون « المؤدبين » وكانوا يؤدبون  
برواية الكلام البليغ الداعي إلى الكرام ، الحافظ إلى المظالم .  
وقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لمؤدب واه : وعلمهم  
الشعر يعجدوا وينجدوا<sup>(١)</sup>

وفي عيون الأخبار أن عمر بن عبد العزيز قال لمؤدبه : كيف  
كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني ؟ قال : أحسن طاعة ، قال :  
فأطعني الآن كما كنت أطعمك<sup>(٢)</sup>

وكان المؤدبون ، حين يروون القصائد والخطب والأمثال ،  
يذكرون طرفاً من أخبار أصحابها ونبذاً من الوقعات التي قيلت فيها  
فاستعمل الأدب في الشعر والنثر وما يتصل به من أخبار ونوادر ،  
وقفاً هذا العرف على مر العصور ، وسمي من يروى الأدب  
وأخباره ويعلمه أديباً

وامتاز الأديب من الشاعر والكاتب . فإذا غلب على الرجل  
درس الأدب وتلميمه فهو أديب ، وإذا غلب عليه إنشاء الشعر فهو  
شاعر ، وإذا غلب عليه إنشاء النثر فهو كاتب . وربما جمع الرجل  
هذه الألقاب الثلاثة أو اثنين منها

وأطلقت كلمة « الأدب » منذ تلك العصور على المعنيين : المعنى  
الخلق والمعنى الكلاسي ؛ أعني حسن الخلق والمعاملة والكلام  
البليغ وما يتصل به من أخبار . وقد ذكر هذين المعنيين ابن قتيبة  
في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » إذ قال : « ونحن نستحب  
لن قبل عنا أو ائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه  
ويهدب أخلاقه قبل أن يهدب ألفاظه » ، وقيل لهذين المعنيين  
من بعد « أدب النفس وأدب النفس »

فأما أدب النفس فقد توسعوا فيه حتى شمل كل طريقة  
مستحسنة في علم أو عمل ، وألفت كتب باسم أدب القاضي وأدب  
الفتى ، وأدب القراءة ، وأدب الحديث ، وأدب البحث ، وأدب المتعلم ،

(١) كتاب نقد النثر ص ٧٠ وعيون الأخبار ج ٢ ص ١٦٧

(٢) ج ١ ص ٢٠١ ، وانظر وصايا المعلمين في ج ٢

يبين ما يدخل فيه وما يخرج عنه فرفوه تعريفات متقاربة؛ منها:

١ - علم يحترز به عن الخطأ في كلام العرب لفظاً وخطاً

٢ - علم يتعرف منه التفاهم عما في الضمائر بأدلة الألفاظ والكتابة

٣ - حفظ أرقام العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف وحصرها العلوم التي تدخل في هذه التعريفات فجعلوا علوم

الأدب ثمانية، ثم زادوها إلى اثني عشر، عدّها ابن الأنباري في طبقات الأدباء ثمانية: اللغة، والنحو، والتصريف، والعروض والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابهم. ثم قال: «وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو الخ»

وقسمها الشريف الجرجاني تقسيماً منطقياً إلى اثني عشر:

قال في مقدمة شرح المفتاح: «إن علم العربية المسمى بعلم الأدب علم يحترزه عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة. وينقسم - على ما صرحوا به - اثني عشر قسمًا؛ منها أصول هي العمدة في ذلك الاحتراز ومنها فروع»

ثم بين أن الأصول هي: اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان (والبديع تابع لها) والعروض والقافية وأن الفروع هي: الخط، وقرض الشعر، وإنشاء النثر، والمحاضرات (ومنه التاريخ)<sup>(١)</sup>

وقال ابن خلدون في فصل علم الأدب من المقدمة:

«وكان الفناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الفناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه»

(١) بين الجرجاني طريقة التقسيم في قوله:

«أما الأصول فالبحت فيها إما عن المراتب من حيث جواهرها وموادها فلم اللغة، أو من حيث صورها وهيئاتها فلم الصرف، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية فلم الاشتقاق. وإما عن المركبات على الإطلاق فأما باعتبار هيئاتها التركيبية وناديتها لمعانيها الأصلية فلم النحو، أو باعتبار إفرادها لمعان مفاصلة لأصل المعنى فلم المعاني، أو باعتبار كيفية تلك الافادة في مراتب الوضوح فلم البيان. وإما عن المركبات للوزونة فأما من حيث وزنها فلم العروض، أو من حيث أواخر أبياتها فلم القافية» وأما الفروع فالبحت فيها إما أن يتعلق بتقوس الكتابة فلم الخط، أو يختص بالانظوم فلم المسمى بقرض الشعر، أو مشور فلم إنشاء النثر من الخطب والرسائل، أو لا يختص بشيء منها فلم المحاضرات ومنه التاريخ»

وأدب المرید، وأدب النديم، وأدب الدنيا والدين ونحو ذلك<sup>(١)</sup> وأما أدب المدرس فقد وسعوه كذلك حتى شمل علوماً عدّة سميت علوم الأدب أو علم الأدب، وأحياناً يسمونها الأدب اختصاراً

### علم الأدب

لم يكن بد لدارسي الشعر والنثر من معرفة قوانين العربية التي تعصم ألسنتهم من الخطأ؛ فكان كل متأدب يتعلم النحو وكل مؤدب يعلمه إلى ما يعلم من الأدب. ففسد النحو من وسائل الأدب، واختلط به. وكذلك علوم العربية الأخرى كما وضع علم جعل من وسائل الأدب ووصل به. فاتصل بالأدب الصرف والنحو والعروض وفنون البلاغة وعلوم أخرى، وسميت كلها علوم الأدب أو علم الأدب أو الأدب<sup>(٢)</sup>

وأراد الباحثون في الأدب بهذا المعنى أن يحدوه حدّاً واضحاً

(١) وهذه أمثلة مرئية على التاريخ:

١ - الأدب الصغير والأدب الكبير لابن الفصح التتوفى سنة ١٤٢

٢ - باب الأدب في كتاب البخاري للتتوفى سنة ٢٥٦

٣ - أدب القاضي للإمام أبي يوسف التتوفى سنة ١٨٢

٤ - أدب الفراء لابن قتيبة التتوفى سنة ٢٧٦

٥ - باب الأدب في ديوان الحماسة لأبي تمام التتوفى سنة ٢٣١

٦ - أدب النفس لأبي العباس السرخسي التتوفى سنة ٢٨٦، ألفه

للمعتضد بالله العباسي

٧ - أدب النديم لكشاجم الشاعر التتوفى سنة ٣٥٠

٨ - أدب الدنيا والدين للماوردي التتوفى سنة ٤٥٠

٩ - آداب الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي التيسابوري التتوفى سنة ٤٤٥

(٢) ومن شواهد هذا أن ابن الأنباري في كتابه «ترعة الأنبياء في طبقات الأدباء» ترجم للتحويين والأدباء مما. وقال في ترجمة هشام بن محمد الكلبي:

«وأما هشام بن محمد بن السائب الكلبي فإنه كان عالماً بالنسب وهو أحد علوم الأدب؛ فلهذا ذكرناه في جملة الأدباء»

وقال ياقوت في مقدمة سجع الأدباء:

«وجمعت في هذا الكتاب ما وقع لى من أخبار التحويين والفرقيين والنسائين والفراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين المروقيين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب المخطوط المنسوبة والمدينة وكل من صنّف في الأدب تصنيفاً أو جمع في فنه تأليفاً»

وألف أبو يعقوب السكاكي التتوفى سنة ٦٢٦ كتابه «مفتاح العلوم» وقال في مقدمته: «وجمعت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، القسم الثالث في علم المعاني والبيان» وعد هذه العلوم من الأدب إذ قال في المقدمة نفسها: «وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون (نوع اللغة) ما رأيت لا بد منه وهي عمدة أنواع متآخفة» ثم بين أن علم الاشتقاق تمام الصرف وأن الداني والبيان يحتاجان إلى العروض والقافية

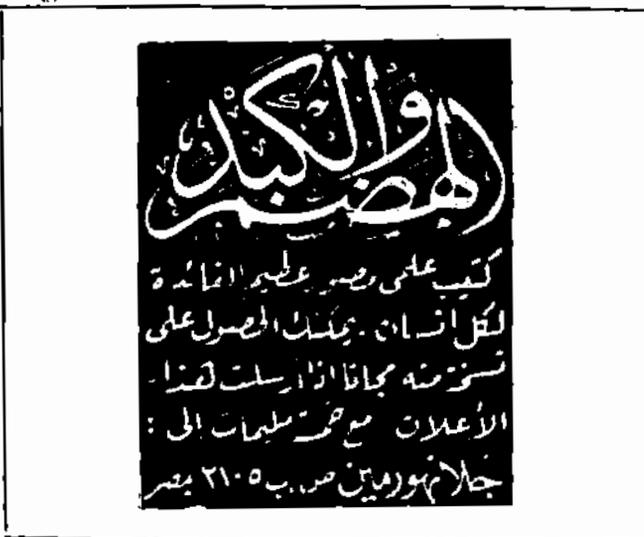
كل ما تصرفه الدول من السياسات وما يتصل بأعمالها من المعارف. ومن شواهد هذا أن كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ضمن خلاصة المعارف التي كانت في عصره .

ومؤلفو الأدب في عصرنا يقسمون الأدب قسمين : الأدب بالمعنى الخاص وهو الشعر والنثر ، والأدب بالمعنى العام وهو كل ما أدركته أمة من المعارف . فيقال مثلاً أدب العرب لما أتر عنهم من نظم ونثر . ويقال أدب العرب أو آداب العرب لكل ما أتر عن الأمة العربية من آداب وعلوم .

وإنما دعا مؤلفينا إلى هذا أنهم قابلوا بكلمة أدب الكلمة الأفرنجية Litterature وهي تدل على كل ما تسجله لغة في عصورها كلها أو بعضها وتخص أحياناً بما يسمى عندهم Belles lettres أى الكتابة الجميلة وهي الكلام البليغ من الشعر والنثر . فلما ترجم كُتبت Litterature في معناها الخاص بكلمة أدب ، وهي ترجمة صحيحة ، ترجموها في معناها العام بكلمة أدب ، وهي ترجمة تحمل الكلمة العربية أكثر مما شاع استعمالها فيه على مر العصور . ولو استعملت كلمة « معارف » في هذا المعنى العام لكان أقرب إلى الوضع اللغوي وأبعد عن اللبس .

وكان من الترجمة عن اللغات الأوربية أيضاً أن سُميت « كلية الآداب » ترجمة للتسمية الفرنسية Faculté des lettres ويقابلها بالانكليزية Faculty of arts فأطلقنا الآداب على اللغات وآدابها والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وجعلنا كلمة « آداب » مقابلة لكلمة علوم التي ترجمتها بكلمة Sciences .

عبد الوهاب عزام



وقد أترّ تعميم « الآداب » وإطلاقها على معارف أخرى في قول الحسن ابن سهل :

« الآداب عشرة : فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصواجج . وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحدة التي أربت عليهن فقطعات الحديث والسعر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس (١) »

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما ينشعب من ذلك ، ومنها اللحن ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها »

وجاء في رسالة إخوان الصفاء :

« إعلم يا أخی أن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضة ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفة الحقيقية .

فالرياضة هي علم الآداب التي وضع أكثرها بطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا ، وهي تسعة أنواع : أولها علم الكتابة والقراءة ؛ ومنها علم اللغة والنحو ، ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ؛ ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ؛ ومنها علم السحر والمزاميم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ؛ ومنها علم الحرف والصنائع ؛ ومنها علم البيع والشراء والتجارات والحرف والنسل ؛ ومنها علم السير والأخبار (٢) ففي كلام ابن سهل والجاحظ وإخوان الصفاء علوم سميت آداباً وليست من علوم الأدب المصطلح عليها .

ويشعر بهذا التعميم قول الجرجاني في كتاب التعريفات : « الأدب عبارة عن معرفة ما يمتاز به عن جميع أنواع الخطأ » وقد ير هذا التعميم حاجة الأديب إلى سعة المعارف والأخذ من كل فن بطرف ( كما قالوا ) وكذلك أدى إلى هذا التعميم تولى الكتاب من الأدباء الوزارة ودواوين الدولة وحاجتهم إلى معرفة

(١) منقول من كتاب ( في أصول الأدب ) للأستاذ الزيات

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٩